شعراء النصرانيّة بعد الاسلام

شعراء الدولة الاموية (تابع)

للاب لويس شيخو اليسوعيّ

١٣ العجّاج بن رؤبة

﴿اسمهُ ونسبهُ﴾ هو عبدالله بن رؤبة بن حنيفة احد بني تميم يُكنَّى ابا الشعثاء والشعثاء ابنتهُ . وقد سُمّي العجّاج ببيت قالهُ في مديح قومهِ :

فعرفوا ألّا يُلاقوا مَخْرجا او يبتغوا الى العماد دَرَجا

حتى يَعِجّ عندها مَنْ عَجْعَجا

وكان يلقَّب بعبدالله الطويل واكثر سكناهُ البصرة فنُسب اليها

﴿زمانهُ وشعرهُ﴾ عاش العجّاج في عهد بني امية فمدحهم ونال صِلاتهم وقد عرف منهم يزيد بن معاوية وسليمان بن عبد الملك وبشر بن مروان بن الحكم ومدح عاملهم على العراق الحجّاج بن يوسف وغيره من اعيان زمانهِ كعُمر بن عبيد الله بن معمر والي البصرة وكان عبد الملك بن مروان قد وجّههُ لقتال ابي فُدَيك الخارجي الحروريّ فاوقع بهِ وباصحابهِ سنة ٧٣ه (٦٩٢م) فمدحهُ العجّاج بارجوزة طويلة في نحو مائتي بيت

اما شعرهُ فقد اشتهر فيهِ بقصائدهِ الرجز فانهُ كان هو وابنهُ رؤبة من كبار الرجّازين وفصائحهم وقيل ان الأغلب العِجلي والعجّاج وابا النَّجم العجلي اوّل من اطالوا المقطّعات ونظموا الاراجيز المطوّلة . وقد اخبر ابو الفرج في الاغاني (١٨ : ١٢٤) عن ابن دريد انهُ قيل ليونس النحوي : من اشعر الناس ؟ قال العجّاج ورؤبة . فقيل لهُ : لِمَ لَمْ تُعنَ بالرَّجاز . ؟ فقال : «هم اشعر من اهل القصيد . انما الشعر كلام واجوَدُهُ

اشعرُهُ». ثم ذكر مثالًا من شعرهما بيّن فيهِ ما لهما من الفضل وجود القريحة

﴿اخبارُهُ﴾ عاش العجّاج في البصرة وفي البادية المجاورة لها في أيام الخلفاء الراشدين ثمّ في عهد بني امية. وكان موالياً للامويين ولعلّهُ حارب مع جيوشهم اعداء دولتهم كما يستدلّ من اوصافهِ لحروبهم. وقد مرّ بدمشق ودخل على خلفائها وحضر مع الشعراء بعض المجالس الادبيّة التي عُقدت فيها. ووقعت بينهُ وبين ابي النجم الراجز مفاخرات كان يدّعي كلٌّ منها الفضل على الآخر

ومما لا ريب فيهِ انّ سمعة العجّاج انتشرت في انحاء العرب وكان الناس يتناشدون شعرهُ فنقلهُ عنهم اللغويّون واستندوا اليهِ في نوادر كتب اللغة

ومما اخبرهُ الاصفهاني في الاغاني متفكّهاً (١٨ : ١٢٤) انّ راجزاً من اهل المدينة جلس الى حلقةٍ فيها الشعراء وبينهم العجّاج وابنهُ رؤبة وهو لا يعرفهما فقال: «انا ارجزُ العرب انا الذي اقول :

مروانُ يُعطي وسعيدٌ يمنعُ مروانُ نيعٌ وسعيدٌ خروعُ

وَددتُ اني راهنتُ من احبَّ في الرجز لأنّا ارجز من اتجاهم فلما قامت البصرة بعث بيني وبينهُ». فأقبل رؤبة على ابيهِ فقال: قد والله نصبَ لك الرجل. فقال عليهِ العجّاج فقال: ها انا ذا العجّاج فهلُمّ. وزحف. فقال المدني. واي العجّاجين انت. قال: ما خالتُك تعني غيري انا عبدالله الطويل (وكان يكنّى بذلك). فقال لهُ المدني: ما عنيتُك ولا أردتُك. قال: وكيف وقد هتفتَ باسمي. فقال: او ما في الدنيا عجّاج سواك ؟ قال: ما علمتُ. قال: ولكني اعلمُ واياهُ عنيتُ. قال: فهذا ابني رؤبة. فقال: اللهمّ غفراً ما بيني وبينكم عملٌ وانّما مُرادي غيركما. فضحك الحلقة منهُ وكفّا عنهُ

وكان العجّاج يقيم في مِربَد البصرة من اشهر محالّها وبها كانت مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء فيقوم بينهم العجّاج محتفلًا عليهِ جبّةُ خزّ وعمامة خزّ على ناقةٍ لهُ قد اجاد رحلها فينشد الناس

وعاش العجّاج الى ايام الوليد بن عبد الملك فمات نحو السنة ٩٠ هـ (٧٠٩م)

﴿دينهُ﴾ ما كنّا لنجسر ان ننظم العجّاج في سلك شعراء النصرانيّة لولا كلمةٌ وردت في شعرهِ تدلُّ على انّهُ دان بالنصرانيّة وان يكن بعد ذلك عدل الى

الاسلام. وهذه الكلمة هي مطلع قصيدته الرائية الشهيرة حيث يقول :

الحَمْدُ لله الذي اعطى الشَّبَرْ

فشرح البعض لفظة «الشَّبَر» بمعنى الخير والعطيـة اي الحمدُ لله موزّع الخيرات والعطايا . الّا انّ للفظة معنى آخر قديماً ورد في شعر عـدي بن زيد الشاعر النصراني الشهير حيث يصف امانتهُ نحو النعمان (شعراء النصرانية ص ٤٥٢):

لم أَخُنْهُ والذي أعطى الشَّبَرْ

فورد هناك شرح الكلمة «بالانجيل والقربان». وكذلـك قال ابن السكيت في اصلاح المنطق (في الطبعة المصرية ص ١٦٩) : «وقيل في الشَّبَر ما هنا انّهُ القربان». فعديّ اذ أقسَم بالشَّبَر اراد أجلّ ما لدى النصـارى في دينهم وهو القربان. وقد زاد العجّاج على قول عدي اذ خصّ الحمدلة في مقدّمة قصيدته وبراعة استهلالها بمنحة الله للشَّبَر فلا يُريد اي عطيّة كانت بل اكبر هبات الله التي هي عند النصارى الانجيل والقربان

ويؤيّد ذلك الشرحُ الوارد في لسان العرب(٦ : ٥٩) وفي تاج العروس(٣ : ٢٨٩) لبيتي عدي والعجّاج : «الشَّبَر شيء يتعاطاهُ النصارى بعضهم لبعض كالقربان يتقرّبون به او القربان بعينهِ. ونقل الصاغاني عن الخليل انّ الشَّبَر شيء تعطيه النصارى بعضُهم بعضاً كأنّهم كانوا يتقرّبون به . . . وقيل الانجيل»

فترى من هذه الشروح انّ العجّـاج وعدي بن زيد ضربا عن وَتَر واحد وانّ كليهما يدين بالنصرانيّة. واللفظة على ما نظنّ سريانيّة فان كانت بمعنى الانجيل فهي «صحّمْا» يراد بها البشرى وهذا معنى لفظة الانجيل في اليونانيّة. وان كانت بمعنى القربان فهي «صحمْا» ومعناها القوت والغذاء اي قوت النفس والقربان

هذا ولا نجهل انّ بعض الرواة رووا كلمة العجّاج «بالخَبَر وبالخَيَر» وكلاهما بعيد او تصحيف فالخَبَر الاثر او السرور اما الخَيَر على فَعَل او الخَيْر على فَعْل بلفظ الجمع فلا ذكر لهما في المعاجم . ما لم يُقَلْ انّ الخَيَر جمع خَيَرة اي المختار ولا شكّ في انّ العجّاج نظر الى قول عديّ السابق ذكرهُ . ولاسيّما انّ اقدم رواية هي «الشبر» راقية الى الخليل في القرن الثاني للهجرة

ولسنا نقصد بقولنا هذا ان نصرانيّة العجّاج كانت خالصةً لا غبار عليها فكما ترى هنا اثر نصرانيّتهِ تجد ايضاً في شعرهِ آثارًا اسلاميّة منها في قصيدتهِ الرائيّة المذكورة حيث يذكر نبيّ الاسلام بقولهِ:

محمّدًا واختارهُ اللهُ الخيَرْ فما وَنى محمّدٌ مذ ان غفَرْ
لهُ الالهُ ما مضى وما غبرْ ان اظهر الدين بهِ حتى ظهَرْ

وقيل (في الاغاني ٢١: ٨٥) انّ العجّاج انشد ابا هُرَيرة صحابيّ محمد قولهُ الذي وصف فيهِ الخالق واعمالهُ ويوم الحساب واهوالهُ:

الحمدُ لله الذي تَمَلَّتِ بأمرهِ السماءُ واستقلَّتِ
بإذنهِ الارضُ وما تَعَنَّتِ أرسى عليها بالجبال الثُّبَّتِ
وَحى لها القرارَ فاستقرَّتِ ربُّ البلاد والعباد القُنَّتِ
والجامعُ الغياثَ المُنبِتِ(١ والرائثُ الناسَ ليوم المَوقِتِ
بعد المنات وهو مُحيي الموتِ يوم تَرى النفوسُ ما أعدَّتِ
من نُزُلٍ(٢ اذا الامور غَبَّتِ من سَعي دنيا طالَ ما قد مُدَّتِ
حتى انقضي قضاؤها فأدَّتِ الى الاله خَلقَهُ اذ طمَّتِ(٣
غاشيةُ الناسِ التي تَغَشَّتِ(٤ يوم يرى المرتابُ أن قد حَفَّتِ
اذا رأى مَتْنَ السماء انْفَدَّتِ وَحيَ الاله والبلادَ رُجَّتِ
وهو الذي أنعمَ نُعمى عَمَّتِ دافعَ عني بنُقَيرٍ(٥ مُوتَتي

١) المُنبِت الذي اصابهُ الجُدْب من احْنَتَ القوم اذا اجدبوا
٢) النزل طعام الضيف يريد بهِ الاعمال الصالحة
٣) اذ طَمَّتهم اي دفنتهم في التراب
٤) الغاشية الهلاك. وتشاءُ غطّاءُ ٥) النُقَير تصغير نَقَر هو فَقْد المال

بعد اللتيّا واللتيّا والّتي (١ اذا علتها أنفسٌ تردّت
فارتاع ربّي واراد رحمتي ونعمةً أتمّها فتمّت
فردّها عني وقد أعدّت أظفارها ونابها وحدّت
فأساً ومسحاةً لتحت جبلتي

فلمّا سمع ابو هريرة انشادهُ قال: اشهد انك تؤمن يوم الحساب. وللعجّاج آثار دينيّة تراها آنفاً

﴿ديوانهُ﴾ قد نجا ديوان العجّاج من الضياع. وكان اوّل من اهتمّ بجمعهِ الاصمعيّ وابو عمرو الشيباني كما روى ابن النديم في الفهرست (ص١٥٨). واما اخبارهُ واخبار ابنهِ رؤبة فجمعها عبد العزيز الجلودي من اهل البصرة. وفي المكتبة الخديويّة نسخة من هذا الديوان نقلها العلّامة وليم بن الورد (W. Ahlwardt) فنشرها مع ترجمتها الالمانيّة في برلين سنة ١٩٠٣

وها نحن نقتطف من اراجيزهِ بعض المقطّعات تنويهاً بفضلهِ فمنها قولهُ مستنيباً ومستغفراً ثمّ ذاكراً ويلات الحرب:

يا ربِّ ربَّ البيتِ والمُشرَّقِ والمُرقِلاتِ كلَّ سَهبٍ سَملَقِ (٢
اياكَ ادعو فتقبّلْ مَلَقي (٣ فاغفرْ خطاياي وثمّرْ وَرَقي
انّا اذا حربٌ غدَتْ لا تتّقي دَيناً ولا مستأخِراً لم يَلحَقِ
تَرُدُّ حدَّ الناب منها الأَروَقِ في كلّ يومٍ كاللياح الأَبلَقِ (٤
والخُمْسُ قد تعلمُ يومَ مُلزَقِ انّا نقي احسابَنا ونَمتقي (٥

١) اللّتيا والتي المصيبة والدامية
٢) المُشرَّق مطلّى اليد. والمُرقلات السَّهب اي الابل القاطعة الفلاة. والسَّملق الصحراء
٣) اي تقبّلْ دعائي
٤) الناب الأَروق اي ذو الرَّوَق وهو طول الثنايا السفلى. واللياح الصبح والأَبلق الذي يختلط سوادهُ ببياضهِ ٥) الخُمس جمع أَخمس الشجاع. المُلزق القتال. ونَمتقي نختبهُ

بالمشرفيات افتخارَ الأحمقِ اذ همَّتِ الذُّهلانُ بالتفرُّقِ(١
بعد جخيفِ البَغْيِ والتمنُّقِ دارَت رَحانا ورحاهم تستقي(٢
سجالَ موتٍ مَنْ يَخُضْها يفرَقِ

وقال يذكر حُسن سيرته وعفافهُ :

يا ربِّ اذ شدَدْتَني عِقالا ولو تَشاء أسرَعَ انحلالا
ان كنتَ قد غيَّرتَ حالي حالا من كِبَرٍ قد أوهن الأوصالا
فلم أكُن استنطقُ العُذّالا من أن يَرَوني للخَنا قوّالا
ولم أكُن لجارتي غوّالا ولم أكُن في جَنْبها جَهّالا
ولم أكُنْ أخادعُ الضلّالا ولا لِما حرَّمتَهُ أكّالا
ولا لبَيْتِ جارَتي خَتّالا بعد انتظام ابتغي الإدغالا(٣
تَبَغّياً ما ليس لي حلالا على لإنه الباعثِ الأثقالا
يُعقِبُني من جَنّةٍ تَظَلّالا(٤ وقد يثيبُ الصابرَ النوالا

ومن اقوالهِ ايضاً يذكر صفاتهِ تعالى :

فالحمدُ لله العليِّ الأعظمِ ذي الجَبَروت والجلالِ الأفخمِ
وعالمِ الإعلانِ والمكتَّمِ وربِّ كلِّ كافرٍ ومُسلمِ
والساكن الارض بأمرٍ مُحكمِ بَنى السماواتِ بغيرِ سُلَّمِ

---

١) اراد بالأحمق الذي لا يُبالي بأهوال الحرب . وبالذُّهلان الجُبناء
٢) الجخيف الانتحار الباطل . والرحى حومة الحرب
٣) الختّال المخدّاع . والإدغال الخيانة ٤) التَّظلّلا من المصادر النادرة كالتظليل

وربِّ هذا البلَـدِ المحرَّمِ والقاطناتِ البيتَ غيرَ الرُّثَّمِ(١
من عهد ابرهيمَ لمَّا تُطْسَمِ

ومن مديح العجّاج قولهُ في يزيد بن معاوية :

فقد رأى الرَّاؤون غيرُ البُطَّلِ أنَّك يا يزيدُ يا ابنَ الأَفْحَلِ(٢
اذ زُلزِلَ الاقوامُ لم تُزَلزَلِ(٣ عن دينِ موسى والرسول المُرسل
اذ طارَ بالناس قلوبُ الضُّلَّلِ(٤ قتلًا وإضرارًا بمن لم يُقْتَلِ
وكنتَ سيفَ اللهِ لم يُفَلَّلِ يَفْرَعُ احياناً وحيناً يَختلي(٥
سوالفَ العادينَ هَذَّ الفُصُلِ والهامَ والبِيضَ انتقافَ الحَنْظَلِ(٦
حتى ارفأنَّ الناسُ بَعْدَ المِجْوَلِ وبعد تَشْوَالِ الحروبِ الشُّوَّلِ(٧
تفادياً منك ولم تُنَلِّلِ

وقال يمدح الوليد بن عبد الملك وكان يكنى بابي العبّاس :

كم قد جَسَرْنا من عَلاةٍ عَنْسِ كَبْداءَ كالقَوْسِ وأُخرى جَلْسِ(٨

---

١) الرُّثَّم جمع رائم من رام المكان اذا فارقهُ
٢) الأَفحل الاكرم ٣) زُلزِل القوم اضطربوا
٤) الضُّلَّل جمع الضالّ المتشتّت المنهزم
٥) فَلَّلَ السيفَ كلَّمهُ . ويَفْرَع يعلو فوق رؤوس العدوّ . ويختلي يجزُّ ويقطع
٦) السَّوالف مفعول يختلي جمع سالفة وهي صفحة العُنق . والهَذُّ القَطْع السريع . والفُصُل البصل البرّي وانتقافَ الحَنْظَل كسرهُ من حبّهِ استعارهُ لكسر الرؤوس
٧) ارفأنَّ سكن وهدأ . المِجْوَل كرّة الحرب . وتَشْوال الحرب هيجانها
٨) جَسَرَ النَّلاةَ اي ساقَ الناقة سَوْقًا شديدًا . والعَنْس الناقة الصلبة الجسم . ويقال قوسٌ كبداء اذا ملأَ مقبضُها الكفَّ . والناقة الجَلْس الرخيّة الجسم

حتى احتضرنا بعد سَيرٍ حَدْسِ إمامَ رَغْسٍ في نِصابٍ رَغْسِ(١
رأسَ قوامِ الدينِ وابنَ رأسِ خليفةً ساسَ بنيرٍ فَجْسِ(٢
في قِنْسِ مَجْدٍ فاتَ كلَّ قِنْسِ(٣ ملَّكهُ اللهُ بنيرٍ نَحْسِ
قد علمَ القدُّوسُ ربُّ القُدْسِ انَّ أبا العبَّاسِ أولى نَفْسِ
بمَدْنِ المَلْكِ كريمِ الكِرْسِ فُرُوعهِ واصلهِ المُرَسِّي(٤

وقال في بني مَرْوان :

انَّ بني مَرْوانَ ضَرَّابو البُهَمْ والقاتلون من عَصَى اذا اعتَقَمْ(٥
دينـاً سوى الحقِّ الى أمرٍ أمَمْ كلُّهُمُ يُنمَى الى عِزٍّ أشَمْ(٦

وقال يفتخر بقومهِ :

قد علمَتْ بكرٌ وسعدٌ تغلبُ لَنَسْرَبَنْ إثراً يُرِنُّ مأتَمُهْ(٧
نطعَنُهُ نَجْلاءَ فيها أَلَمُهْ يجيشُ من بين تراقيهِ دَمُهْ
كمِرْجَلِ الصَّبَّاغِ جاشَ بَقَمُهْ(٨

---

١) السَّيرِ الحَدْسِ هو السريع . واحتضرنا كحَضَرَ . الرَّغْس النعمة والبركة خصَّها بالإمام اي الخليفة الوليد . والرَّغْس المشي البطيء من الإعياء
٢) الفَجْس الكبر والتعظُّم
٣) القِنْس أهل الرأس والذؤوبة
٤) كريم الكِرْس اي كريم الاصل . والمُرَسِّي المتأصِّل
٥) البُهَم الشجاع . اعتقم الرجل الى الشرّ تردَّد اليه
٦) الامر الأمَم الواضح البيّن . والأشمّ العالي الشرَف
٧) يُرِنّ مأتَمُهُ اي يكون لموتهِ رنّة حزن وصراخ
٨) الطعنة النَّجْلاء الواسعة . وجاش الدم انصبَّ بغليان . ثم شبَّههُ بغليان خَشَب البَقَّم الذي يطبخهُ الصبَّاغ ليصبغ بطبخهِ

ومن حسن اقواله وصفهُ الليلة قضاها بالالم والسهاد :

ولـيلةٍ منَ الليالي مَرَّتِ بكابدٍ كابدتُها وجَرَّتِ(١
كلكلَها لولا الإلـهُ ضَرَّتِ في ظُلَمٍ أزلَّها فزلَّتِ(٢
عنّي ولولا اللهُ ما تجلّتِ بتُّ لها يَقْظانَ وأقسأنّتِ(٣
اذا رجوتُ ان تُضيء أسودَّتِ دون قُدامي الصُّبْحِ فارجحنَّتِ(٤
منها عَجاساءُ اذا ما ألتجّتِ حسبتُها ولم تَكِرَّ كرّتِ(٥
كأنّما نجومُها اذ ولّتِ زَورًا تباهي الغَوْرَ اذ تدلّتِ(٦

ومن اقواله الدينيّة قولهُ يذكر العمل الصالح وجزاءهُ عند الله :

يعلَمُ والعالِمُ لا كالأَجهَلُ أنَّ حسابَ العَمل المُحصَّلِ
والأَولى منْ غِبِّ الامورِ الأَوَّلِ عند الاله يومَ جَمْعِ العُمَّلِ
بمَجمع الحساب والمُزَيَّلِ(٧ وأنَّ خيرَ الحَوَلِ المحوَّلِ

فَلَذُ المطاء في الحقوقِ النُّزَّلِ

وقال في مثل ذلك :

لا اشتمُ المرءَ الكريم المُسلما ولا أرى شَتْمَ البريء مَغْنما

---

١) الكابد المكابدة والمشقّة
٢) الكَلْكَل الصدر. واستعار جرّ الداهية بكلكلها لطول مصائبها . وأزلّها اي اللهُ أزلّتها وغمّاها . ٣) اقسأنّت اشتدّت وصَعُبت
٤) قُدامى الصبح لوائحهُ الاولى . ارجحنّت مالت واعترّت
٥) العجاساء ظلمة الليل. والتجّت اي التبست واشتدّ ظلامها
٦) ولّت زَوَرًا اي ولّت يزَوِّرها اي صدرها ٧) المُزيَّل هنا المختار

ولا ابنِ عمّي أن أراهُ مُفحَما وجارةُ البيتِ أراها مُحرَّما(١
كما قضاها اللهُ إلّا إنّما مكارمُ السَّعي لمن تكرَّما
مَخافةَ الله وعلماً انّما يجزي المُجازي عاملاً ما قدَّما

ومن التشابيه النصرانيّة قولهُ يصف بقرة وحش :

واعتادَ أرباضاً لها آريُّ من مَعْدنِ الصِّيرانِ عُدْمُليُّ
كما يعودُ العيدَ نصرانيُّ وبيعةً لسُورها عِلّيُّ(٢

فمن هذه الامثلة يلوح للقرّاء ما صار اليهِ شعر الرَّجز في عهد بني امية اذ بلغ الغاية من المتانة والتبسُّط وكان للعجّاج في ذلك السهم الفائز وعلى اثرهِ جرى ابنهُ رؤبة من بعدهِ وعاش الى زمن دولة بني عبّاس ولا نعرف من نصرانيّتهِ شيئاً كما ظهر من شعر والدهِ وانّما يثبت على دينهِ او جمع بينهُ وبين الدين المحمدي كما وقع لغيرهِ من نصارى بني [illegible] لم يستقرّوا على رأي فتقلّبوا على حسب احوال الزمان والله اعلم

السريان في القطر المصري

لحضرة القس اسحق ارملة السرياني الكاثوليكي

ثم ان كتبة السريان لم يغفلوا من ذكر بطاركة الاقباط في تواريخهم فسردوا فيها

١) المُفحم المنقطع صوتهُ لكثرة البكاء . مُحرَّم اي ممدودة خراماً

٢) اي اعتاد هذا البقر السَّير في نواحيَ ذات بطون وحزون ووصفهُ بكونهِ من خير الصيران . والصيران جمع صَوْر وهي جماعة البقر . والعُدملي التقدُّم في السنّ . ثمَّ شبَّههُ بالنصراني المتردِّد في الاعياد الى كنيستهِ ذات السور المرتفع العليّ